الرّواية والتّاريخ: استراتيجية تخييل التّاريخي في سبيل تحيين صورة السّلطان "مجنون الحكم" نموذجاً

Novel and History: A Strategy of Historical Imagination in order to Revive the Image of the Sultan "Crazy Governance" model

طالبة الدّكتوراه: بصيود ماجدة
الأستاذ الدكتور/ الطّاهر روابنية

قسم اللّغة العربيّة وآدابها- جامعة باجي مختار- عنّابة(الجزائر)
مخبر الشّعريّات وتحليل الخطاب، جامعة عنّابة.
bessioudmadjda@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/29 تاريخ القبول: 2021/02/01 تاريخ القبول: 2021/03/15

ملخّص:

نحاول من خلال هذا المقال الاقتراب من إشكاليّة كتابة التاريخي روائيًا، عبر رصد إستراتجية اشتغال الروائي على النّواة التاريخيَّة، وتمظهرات هذا الاشتغال الدلاليّة، والموجهة صوب العناية بمحاور ساخنة في الحيني، وذلك عبر استصاغة آليات التعديل الفنّي على الشَّرط التاريخي، وتوجهها صوب تكوين ماهية"تاريخيالية"، والتي يندمج فيها المنجز تاريخياً، مع المخيال السَّردي، لتفجير أيقونات دلاليَّة هي اشتغال على انشغالات زمن الكتابة، تحت ما يعرف بإستراتيجيَّة "تحيين التَّارخي" وقد ارتأينا الوقوف على هذه الإستراتيجية، في رواية "مجنون الحكم"، لصاحبها "بسالم حميش".

- فما هي إستراتيجيَّة "حميش" في كتابة التاريخي روائياً؟
- وهل استطاع "حميش" عبر فعل تحيين التاريخي أن يقترب من واقع الحال السلطوي؟

الكلمات المفتاحيّة: تحيين؛ التّاريخي؛ التّخييل؛ الرّواية؛ مجنون الحكم؛ حميش.

Abstract:

This article attempts to approach the problem of writing the historical as a novelist, by monitoring the strategy of the novelist's work on the historical core, and the indications of this semantic work, which is directed towards

caring for hot axes in the world, by formulating the mechanisms of artistic modification on the historical condition and directing it towards the formation of a "historical" essence In which the achievement is merged historically, with the narrative imagination, to explode semantic icons, which is a work on the preoccupations of the writing period, under what is known as the strategy of "updating the history".

1. What is Hamish's strategy in writing the historical novelist?
2. Was Hamish able, through the act of reviving the historical one, to approach the reality of the authoritarian situation?

key words:
Update ; the historical; fancy; a novel; governance; Hamish

تبنت الرّواية العربيَّة المعاصرة أشكالاً إبداعية جديدة، كسرت قولبة ونمطيَّة الرّواية التقليديَّة القائمة على استحضار الموروث السردي في أبعاده التقنية التراثيَّة، وما صاحب هذا الاستحضار من إحياء للاشكال السرديَّة القديمة، والتي تعكس وعيًا خاصًا بضرورة المحافظة والتأصيل، دون أدنى نية في تمثُّل تمظهرات التقنيات السرديَّة المستحدثة في العمل الروائي، بل حاولت الاشكال الروائية العربيَّةأن تقدِّم أرقى ما لديها في إطار ما تم إنجازه من تزاوج بين الخصوصيَّة النثرية العربية والتقنيات السرديَّة المستحدثة، فكان هذا باعثًا على ما حققته الاشكال الروائيَّة في فترات لاحقة من ضروب التشاكل الأجناسي داخل حدود المتن الرِّوائي، الذي تجاوز أسطورة نقاءالجنس، خاصّة في ما يتعلق بمسألة استدعاء النص التاريخي، بحكم أن مثل هذا الاستدعاء يعكس وعيًا حيًا بأهميّة التّاريخ، وبعمق الخصوصيّة العربيّة فكان لهذا الاستحضار أبعاده الفنية وميزاته الثيميّة، تحت ما أصبح يعرف "بالرواية التاريخية" التي استطاعت أن تخلق لنفسها نمط كتابة مغاير، من خلال جعل الشّرط التاريخي بؤرة لمدارها النصّي مع فرض فرص للنّقاش مع الحاضر، هذا إذا انطلاقنا من تصوُّر مفاده أن الرواية تراعي أكثر شيء مكانيزم التّماهي مع الواقع والحلول فيه، الأمر الذي جعلها قادرة على صوغ « الهويات الثقافيّة للأمم بسبب قدرتها على صوغ التصوّرات العامة عن المجتمعات والحقب التاريخيَّة والتحولات الثقافيَّة»[1].

1. الرواية وتحيين التاريخ:

غير خاف أنّ الحديث عن رواية تتناول التاريخ لا يعني وجود علاقة ميكانيكيّة بين الرّواية والتاريخ، والأمر يتوقّف دائمًا على طبيعة العمل والفضاء الرّوائي، وما يفترضه من إمكانات التعايش والاتفاق بين الشرط التاريخي والافتراض الدّلالي الذي يشتغل عليه الرّوائي.

هذا على الرَّغم من نقاط التقارب والالتقاء بين الرّواية والتَّاريخ كنشاطين سرديين ارتبط مفهومهما بتفسير الإنسان، فإن كنَّا نؤمن بأنَّ التاريخ ليس حلقة أحداث ماضية، أو إجمالاً لرؤية الحقائق التاريخيَّة، ولكن هو تفسير لحالة الإنسان الذي هو كائن زمني وشبكة من الذاكرة التاريخيّة"[2]؛فإننا وبالموازاة نؤمن بحقيقة الرواية كـ: « أحد مكونات الخطاب الذي ينتجه المجتمع من أجل فهم الذّات، وتشخيص المتخيّل الاجتماعي»[3]وبالتالي يشكّل فهم الوجود البشري البؤرة المحوريّة التي يقوم عليها مدار البحث في حقلي الرّواية والتاريخ.

غير أن الهوة بين الشّرط التّاريخي الواقعي وبين مدلول الرّواية مرشّحة للاتساع باستمرار، فما يتغيّاه الرّوائي من زمن الكتابة يجعله يمارس عنفوان "التحيّين" على المنطلقات المرجعيّة التي تنطلق منها الكتابة التاريخيّة، وذلك بتوسُّل فاعليّة التخييل الذي يمكّن من« استخلاص نتائج صادقة انطلاقًا من أقوال الخطاب ومن قضايا السياقات المتابعة التي يقوم عليها تأويل هذه الأقوال »[4]؛فالرّوائي يتصرَّف في المتن التاريخي بدعوى انتفاء الحاجة لمثل هذه المرجعيّات التاريخيّة، في الوقت الذي يجعل الرّواية كإبداع مكرَّسة أكثر لخدمة حلمي التغيير والتجدّد، وهو المنطلق الوحيد الذي ينطلق منه المبدعون حين يتجاوزون الماضي، ممعنين النّظر في حاضرهم خاصة وأنّ الرّواية«لا تفحص بأسئلتها المختلفة الواقع، بل تستهدف بنظرتها الشاملة الوجود بكل ما يحيط به من ركامات مختلفة، وزخم دلالي يحمل أسئلة ميتافيزيقية تستهدف المصير وغموض المستقبل»[5].

وإن كانت الرّواية تحرّك الإنسان وتجعله أكثر تيقُّظا لواقعه وأكثر رغبة في البحث عن حلول لهذا الواقع؛ فإنّ هذا الشّرط في الرّواية التاريخية يكتمل في طبيعة التجارب المرجعيَّة المنتمية لزمنيّة الماضي، والمقدّمة على أنّها صيغ واقعيَّة وجبت الاستفادة منها كما وجب تجاوزها؛ وبالتالي فالغيريّة الزمنية في الرواية التاريخية، تجعل إنسان الرَّاهن يلج عمق التجربة الماضية، بحثًا عن سبل تمكنه من إنارة حاضره وجعله مبصراً، وكل ذلك يكون بما للرّوائي المبدع من قدرة تجعله يحسن قراءة التّاريخ، ويعي جيّدًا أيُّ التجارب تصدق أن تكون مثالاً لما هو راهن، وأيُّها أقدر

على اجتراح الأسئلة المعقدة فيه، وهنا يصبح التاريخ هو الأداة الصحيحة لفتح فرص التغيير نحو الأفضل، وتيسير فهم سبل الانتقال إليه، وتبقى للرّواية مناخاتها الخاصة بها.

وإن كان الرّوائي لا يمتلك شرعية أن ينوب عن غيره في تقديم إجابات عن أسئلة لم يقدّمها التاريخ منهجيًا، فإنَّه حرٌّ في أن يختار من عبق التَّاريخ ما يجد فيه صدى لهواجس راهنه، كما أنّه حرٌّ في أن يرمي شرارة السؤال ليتولد هشيم التساؤلات التي تفضي إلى تكوين إجابات ملحَّة حول الواقع وإكراهاته.

وهذه الأسئلة تستند قصرًا إلى بعدها الوظائفي، فهي تؤدي وظيفة إبصار وتنوير أكثر باقترابها من حقل التّاريخ " الذي يشكل نظريًا الحيّز الزّمني الخطّي الذي يتفتَّح فيه الكمال الإنساني وينجز اكتماله"[6].

ويتم ذلك من خلال تحيين التّاريخ وتحويله من منجز بشري جاهز، إلى بنية روائيّة تتعمّق أبعادها الإنسانيّة بتعمّق قراءاتها، متخطيَّة بذلك المجال التّاريخي الشّحيح المحدود الدّلالة، إلى مجال إنساني يصل الماضي بالحاضر، ويؤسّس لنظرة وجوديّة بعيدًا عن معادلة الأرقام وهيمنة التوثيق، غير أن الخطاب المنشأ في ظلّ تلاقح المرجعي التاريخي مع المتخيّل الرّوائي الذي يمكن أن نطلق عليه سلفًا تسمية الخطاب التحييني لا ينبني على صيغة التشويه أو التحريف التي تكون الغاية منها استبدال نوع بنوع آخر، وإنّما يبنى على عمليّة التكثيف الواعيّة التي تكون الغاية منها إبصار الرّاهن وصهر أبعاده في أنسجة الأفق الدلالي الثاوي في أنوية الخطاب الأدبي .

يؤسس الروائي عبر فعل التخيُّر الفنّي الذي يستصيغ بعدي الكتابة التاريخية والفنيَّة لرؤية دلالية يفعّل عمقها عن طريق فعل "الإحياء التاريخي "، الأخير الذي تجنح الرِّواية من خلاله إلى "استعمال نوع من التورية لتعيين زمن لاحق بواسطة زمن سابق "[7].

والخطاب المحيين الذي تنشئه الرِّواية في هذا الإطار ليس هو خطاب التاريخ، وإنّما هو خطاب زمن الكتابة الناتج عن قراءة مستفيضة لهذا التاريخ، وعن نظرة متفحصة للواقع .

كما أن التاريخ الذي تستلهمه الرِّواية لإنتاج مثل هذا الخطاب الموازي التحييني لا يمكن أن ينظر إليه على أنّه علم موضوعي، وإنّما تكون النظرة إليه على أنه "وسيلة لتقييم الحاضر "، وهو التمييز الذي كان قد أقامه "عبد الله العروي"الذي يقول في هذا الشأن "أميَّز بين التاريخ

كدراسة لوقائع الماضي، كتقنية من تقنيات المعرفة (وسائل التنقيب عن الوثائق طرق النّقد والتحقيق ...إلخ، وبين النظرة الشاملة التي يلقيها مجتمع ما على جميع حوادث الماضي، أو بعبارة أخرى بين التاريخ كفن والتاريخ كوسيلة تقييم الحاضر "[8]

إن الخطاب الموازي التحييني الميتاسردي تكون الحظوة فيه لفكرة غائيّة التّاريخ، أين تصبح له غاية أخرى غير الغاية المرتبطة بسياقه التعليمي التوثيقي. وهو خطاب قائم على تقليص المسافة الزّمنية والثقافية بين التاريخ والوعي بالواقع الرّاهن، الذي يسعى الروائي إلى تجذيره في متون المتخيّل المستند إلى الشرط التاريخي، عبر خطاب يحكم على الواقع الحضاري استنادا إلى خطابات أخرى متنوعة.

ومثل هذا الخطاب الموازي التحييني هو صنيع إيديولوجيا المؤلف فالإيديولوجيا هي الخطاب الآخر غير الجاهز الذي يتأسس على الخطاب الجاهز وهي وكما يرى ماركس" ماليس واقعاً"[9]. والإيديولوجيا -في الغالب الأعم- لاتطابق الواقع؛إذيرى بول ريكور " أن مشكلة الإيدولوجيا هنا تتعلّق بالفجوة بين الاعتقاد و الادعاء [...]وأن وظيفة الإيدولوجيا تتمثّل في سدِّ هذه الفجوة" [10]. وهو أحد المفاهيم التي يقدِّمها "ريكور" للايدولوجيا، تقوم على اعتبارها دمجًا intégrationبين الفعل الاجتماعي والبنية الرَّمزيَّة له، والإيدولوجيا هي التي تلعب ذلك الدَّورالوسطي في الميدان الاجتماعي"[11]

ففي الخطاب"التحيّيني"، وفي لعبة التكاثف الزَّمني الذي يمكن وسمه بالمنتج بين الزَّمن التَّاريخي والزَّمن الرَّاهن، يتفكك التَّاريخ الرَّسمي في ضوء الإستراتيجيَّة الفنيَّة القائمة على تفعيل قانون اللُّعبة السرديَّة أين يتأسس المنظور الإيديولوجي الخاص بالفنان، مبلورًا رؤية حينيّة تقف على ما هو آني، فيلعب عنصر المفارقة الزمنيّة بين زمن مضى وآخر معيش دورًا بارزًا في تغذية الخطاب الموازي التحييني، الذي ينشأ من حدة التكاثف والتفاعل بين خطابين، أحدهما تاريخي ذو امتداد زمني حقيقي، والآخر فني يتوسَّل في إطار السَّرد الإجابة عن المسكوت عنه في عمق التَّاريخ الكتيم، وبناءً على هذا التظافر تتشكل مايمكن تسميته" الايديولوجيا النصيَّة" وهي إيديولوجيا تتحدَّد بناءً على الهويَّة "التاريخياليّة" الجديدة، هويَّة تستحدث التاريخ و تحيّنه (تجعله حديثا وحينيًا)، وتؤرخ للرّاهن أين تصبح المعرفة التاريخيَّة بعدًا منتجًا في هويّة الخطاب المنْتَجْ. فتتجاوز المنظومة التاريخيّة الإطار النفعي للتّاريخ، لتستشرف بعده الإيهامي، الذي هو اشتغال على النَّواة

التاريخيَّة، فيشكل بذلك الخطاب التحييني الذي تنتجه الكتابة التاريخيَّة مايمكن تسميته بالكتابة على الكتابة، نتيجة لكونه يعتني بخاصية " الاستهلاك المنتج"، فهو يستهلك مقولات التّاريخ الرّسمي المرجعي، لينتج بناءً عليها منظوره الخاص لاسيما وأنّ الرِّواية التاريخيّة لاتستدعي التّاريخ إلاّلتدخله في إيهاب التخييل fiction، ومن ثم فإن التَّاريخ بمايحمل من رموز، يوسّع أفق الكتابة الروائيَّة ويربط النّص بواقعه" [12].

2. مجنون الحكم، وفاعلية المتخيل في بناء المشترك تاريخيًا و روائيًا:

تعدُّ رواية "مجنون الحكم" للرّوائي المغربي بنسالم حميش من أبرز الرِّوايات التّاريخيّة «ويندرج موقعها بالتّحديد في خانة الرَّواية الجديدة التراثيَّة التاريخيَّة وهي صنف من الرّواية العربيَّة دأب على الحفر في الموروث السردي عن أحداث تاريخيَّة.[..] تسمح بتنضيد الشّكل الرِّوائي دون التضحيَّة بأطروحته»[13].

تتحدَّث هذه الرِّواية عن مصر، "إبان حكم الحاكم بأمرالله"الخليفة الفاطمي وعن شطحاته التي لا تعلّل، إذ تبئر الرِّواية هذه الشخصيَّة في معظم فصولها وتقدِّمها نموذجا لحاكم سلبي، وهوالأمر الذي تلتقي فيه الرِّواية مع التَّاريخ وفق منظور تخييلي، يتخذ المنظومة الخطابيَّة التاريخيَّة صرحا لبناءخطاب يتقوَّت من النواة التّاريخيَّة، ويستزيد بفاعليَّة التخييل المنتجة.

1. – فاعلية المتخيَّل في تفكيك وإغناء النواة التاريخية:

إنّ فكرة التخييل التّاريخي تقوم بالأساس على مدى قدرة الرِّوائي على تخيُّر وانتقاء الأحداث التاريخيّة وإعادة صياغتها وفق مقتضيات السَّرد الرِّوائي، وضمن نسقيَّة روائيَّة جديدة يصبح المتخيَّل فيها جزءًا من التاريخي، دون أن نعدم حضور آليّة التوافق وسط هذا الانسجام الذي وجب أن يشي بطابع النسقيّة، ويبقى للنّص الرِّوائي طريقته الخاصة والمرتّبة في تفاعله مع التّاريخ، وهو تفاعل مصمَّم سلفًا وفق غايات خطابيَّة تحكمها ديناميّة التخيّيل ؛ والتخييل كفاعليَّة حال تفعيله في الخطاب التّاريخي " يفهم على أنه وضعيَّة واقعيَّة وحين يجري الأمر نفسه بعد تغيير مايجب تغييره في نص تخييلي يفهم على أنّه وصف لأحداث واقعيَّة" [14].

لقد تعدَّدت المرجعيات وأنواع الخطاب في رواية" مجنون الحكم" إلا أنها جميعًا، تعزّز فكرة محوريّة لا يمكن القفز عليها وهي تلك المتعلقة بأهمية التخيّيل كفاعليَّة وحتميَّة في تمثيل العلاقة بين المرجعي و الرِّوائي .ولعل هذا ماتعزّز أكثر في المتن الرّوائي من خلال كون فاعليّة

التخييل جاءت لإقامة شراكة بين منظومتين متباعدتين؛منظومة تاريخيَّة وأخرى روائيَّة ، وتتبدى فاعليَّة التخيّيل أكثر، حين تلج مرجعيَّة الرِّواية على أكثر من سياق وأكثر من رافد ثقافي، في تكوينها لفضائها المتخيّل، خاصة وإننا عندما نتأمل رواية "مجنون الحكم" نجد أنفسنا" أمام مهرجان تعبيري يشرك المنظومة العربيَّة كلهًا بسجلاتها التعبيريَّة المتنوِّعة، في بناءصرح هذا المعمار المهوس بالتنقيب اللُّغوي والحفر في نوايا الكلمات، وكأن الجنس الأدبي الواحد، واللُّغة الواحدة لا يستطيعان استيعاب ما يزخر به النَّص من أفكار و معانٍ"[15].وبالتالي تزداد أهمية فاعليَّة التخييل وعيا روائيا مدركا لطبيعة العلاقة بين الرِّوائي و التَّاريخي، مايجعله فاعلاً في المتنين، فهو يمكّن التَّاريخ من التزوُّد بمزايا الكتابة الرِّوائية، كما يسهم في تنشيطه إبداعيًا، بالإضافةإلى كونه يمنح الرِّواية فرصة الاستقلال بالموضوعيَّة والتزوُّد من فرص المعرفة التاريخيَّة، وقد قام النّاقد "جيرار جينيت" بإعادة مناقشة مصطلح التخييل، ضمن مفهوم أساسي وعام يتعلق بالأدبيةlittérature وقد عدّه "جينيت" اشتغالا لغويا وممارسة لسانيَّة لها خصوصياتها، إنّه فعل لغوي مرتبط بغاية وظيفية، وغائية قول التخييل لايستجيب لأي شرط من الشروط (الصِّدق والالتزام والقدرة على تبرير جديَّة القول) أي صحَّة مطابقته لما يحيل إليه، إن الملفوظ التخييلي تنظّمه صيغة الادِّعاء، إنّه زعم وإيّهام يدَّعي مطابقته للواقع أو المرجع"[16].فالتخييل هو عمليَّة ديناميَّة، كما أنَّه عملية قائمة على عنصر الإيهام الموجَّه نحو إثارة مقصودة بذاتها تجيز صيغ التراسل الأجناسي، كما تجيز آليات التحوير والتعديل.

وقدحاول الرِّوائي "بنسالم حميش" أن يشتق من معادلة التفاعل التخييلي التَّاريخي، وجهًا جديدًا يفسّر من خلاله حتميَّة العلاقة بينهما في إطارها الحيني، وبذلك عمد إلى اشتقاق صيغة جديدة من صيغ الرَّاهن، تقوم على تقديمه كزمن سديمي بعد أن أضحى ثقيلاً ومبهم الإجابة، بالاستناد إلى مرجعيّة تاريخيّة تتعلّق بالدولة الفاطميّة، وأخرى متخيّلة تتعلّق بتبئير الرّاهن السياسي.

أرّخ" بنسالم حميش" الرَّاهن في أكثر من صورة، فاستدعاؤه للتَّاريخ يخلو من أن يكون خادمًا لشرط التَّوثيق، بل كان يكشف لنا بين الفينة و الأخرى " عن هويَّة ثانيَّة توازي طبيعته الواقعيَّة" [17]؛وهذه الهويّة الافتراضيَّة تنتج عبر آلية التخييل، في ظلّ ِاستلاب معمَّق يتنصل فيه التَّاريخ من بعده الخالص لوجه الحقيقة ليقدِّم حقيقة أخرى، غير الحقيقة التوثيقيَّة المعمَّدة

باسمه، فتسقط عن الخطاب التَّاريخي أقنعة الماضي، حين يستخدم استخدامات متنوّعة تفرضها طبيعة التخييل كفاعليَّة تلغي جاهزيَّة الفكرة، وثباتها في الزمن، وتلغي قصديتها كتجارب زمنيَّة في نسق سديمي، فاتحةأبواب العمق والتنوّع، مايمُكِّن من تعميق البعد الافتراضي للفهم التَّاريخي، وتمكنيه أكثر من الاقتراب من الواقعي، الذي هوأصلاً الميدان المشترك لزمنيَّة التَّاريخ وواقعيته، ووقائع الحاضر بكلِّ ما فيه من تستُّر، وبكل مافيه من تمظهرات مغيّبة، يظهرها التخييل بالارتداد لزمنيَّة ماضيَّة قوامها التكرار.

ينطلق الروائي في تفعيله المتخيَّل، من فرضيّة أنّه لا فرق بين الزَّمن الآني و الزَّمن السّحيق، فالزّمن الأوَّل هو تمثيل للزَّمن العربي بكل انكساراته، التي هي وليدة اضمحلال قيمي، وعجز ملحوظ عن تمثُّل قيم العدالة، والزّمن السَّحيق هو زمن الدَّولة الفاطميَّة التي قامت هي الأخرى على يد شخصيَّة عصابيَّة، غيّبت كل معاني الإنسانية. وبالتالي فخاصيَّة الاحتواء التي يفرزها فعل التخييل، هي خاصيَّة ذات طبيعة نسقيَّة، تجعل التَّاريخ زمنا نقي الانتماء، يندمج في الرِّواية التي هي الزَّمن المموَّه الافتراضي، وهي التصوُّر الخالص لعديد الأزمنة بما فيها الزَّمن الماضي.

تأتي فاعليَّة التخييل في رواية " مجنون الحكم" تبعًا للتجربة التاريخيَّة الواقعيَّة، "فحميش" لا يقدِّم الأحداث في إطار تخييلي خالص، وإنّما نجده ينطلق من الشرط التَّاريخي، المتمثِّل غالبًا في الشواهد التَّاريخيَّة، ويضعها نصب عينيه، قبل أن يبدأ في تأمُّل وجوه العلاقة الافتراضيَّة بينها وبين الرَّاهن. فهو يهتم بما يعرفه عن شخصيَّة الحاكم بأمر الله، لتأتي آلية التناسل المشروع للعنصر السَّردي عبر إثارة عنصر التخييل، الذي هو اشتغال تعديل و تحويرعلى النواة التاريخيّة، وقراءة في تخوم البياضات التي يزخر بها التَّاريخ.

يقول حميش: "إنَّ سؤالي المحوري بالنسبة لأبي علي المنصور(الحاكم بأمر الله) ماذا كان يدور في خلد هذا الرَّجل بمعنى إيديولوجيته، كيف كان يتصور علاقته مع الرَّعيَّة مع الآخرين؟ هذاالشيء لايجيب عنه بالتدقيق المؤرخون، وهذا طبعًا ترك لي مساحة كبيرة، لأعمال الخيال أي الفرضيات كما هو في الرياضيات لكي أملأ الفراغات و البياضات، وهذا بالنسبة لي عمل الرِّوائي بالدَّرجة الأولى، لكن مع شرط، وهو شرط مهم، وهو الانزياح وراء تخييل ما لا يقبل، وما لا تقبله الحاسّة أو الإمكان يعني أن يكون قابلا ًللتحقّق"[18].

إن ما يرمي إليه " بنسالم حميش" من خلال طرحه هذا، أنَّ الرّوائي وجب أن يقوم بتخييل مايرى فيه قابليَّة للتحقّق، بمعنى أنَّ ما يحتفي به الرّوائي في الرّواية التي تستلهم التاريخ، هو البياضات والثغرات التي يغفل عنها التَّاريخ والتي تحمل إمكانات التحقُّق وتبقى لهذه البياضات فرص تحقّق ووجود فعلي خارج المضمار التاريخي، الذي يقفز عليه القارئ ليؤسس رؤيته الخاصة هو الآخر، بناءً على رؤية المؤلِّف، فنصبح أمام دراسات ثقافية تلغى فيها أهميَّة النّص، من حيث هو نصٌّ تاريخي "فليس النّص سوى مادة خام تُستخدم لاستكشاف أنماط معينة، من مثل الأنظمة السَّردية والإشكاليات الإيديولوجية، وأنساق التمثُّل، وكلما يمكن تجريده من النص"[19]

والخطاب التَّاريخي في حدِّ ذاته هو خطاب غير مكتمل، قابل دائمًا للترشيد و التوجيه، وتبقى القرَّاءات المقدَّمة للواقعة التَّاريخية، من حيث هي ترهين لتجارب ماضية في الوعي البشري، هي الوجه الآخر للتَّاريخ؛ إذ لايصبح التَّاريخ تاريخًا قابلاً للتأمّل، إلّا في ضوء قراءات مكثَّفة لما لم ينطق به أصلاً، وهو ماذهب إليه "فوكو" الذي رفض: «إضفاءطابع علمي من طراز علميَّة الفيزياء والكيمياء على خطاب العلوم الإنسانيّة ومنها التّاريخ، فهو خطاب يصوّر العالم الاجتماعي التَّاريخي قابلاً على نحو شفاف للفهم والترشيد العقلاني من حيث الإمكان»[20]؛ وبالتَّالي " فحميش" في عودته للقاهرة زمن الحكم الفاطمي، كان ينشد فكرة تخييل التَّاريخ، وجعله أكثر مرونة وقابليَّة لتشكيل فضاء متكامل، عن بيئة الحاكم بأمرالله، ولا يعدُّ هذا قفزًا على الشرط التاريخي، بقدر ما هو عناية بالمضمون التَّاريخي في حد ذاته، وتطويعه ليكشف عن وجهه المنتج لا الاجتراري المستهلك ؛إذْ" ليست المسألة قراءة النَّص في ظلّ ِخلفيته التَّاريخيّة ذات الأنماط المصطلح عليها، فالنَّص والتَّاريخ منسوجان ومدمجان معًا كجزء من عمليَّة واحدة والدِّراسات الثقافية تركّز على أنّ أهميّة الثقافة تعين على تشكيل وتنميط التَّاريخ"[21]؛فإنتاجيَّة التّاريخي، تتوقف على مدى قدرة الرّوائي على شحذ الهيكل التَّاريخي بمضمون إنساني يعبر عبر تجاويف الذَّاكرة، ليمارس نشاط الملء عبر فعل الإثارة الحكائيَّة، "حيث يكون الكاتب عارفًا بالوقائع أصلاً، لكنه يخلق لها وضعيَّة سرديَّة جديدة يستحضرها بها فنيًا"[22].

وهذاالعالم التخييلي الذي بناه "حميش" سرديًا، في"مجنون الحكم""لم يكن عالما منبتّ الصِّلة بالواقع، بل كان الواقع في ثيماته الأساسية، يتمدَّد في ثنايا السَّرد، فيما يتولى التخييل بناء

هذا العالم بفضائه وشخوصه ولغته و تفاصيله[23]. وعليه ففاعليَّة التخييل في"مجنون الحكم" _كما سبقت الإشارة_تتحدَّد استنادًا إلى الشَّرط الغيري الذي يتمثَّله التاريخ في الرِّواية، ومن ثمة لا يجوز التحدُّث عنه بمنطق الحقيقة، فيصبح الشَّرط التَّاريخي داخل المتن الرِّوائي و كما يرى "فوكو " ذاكرة مضادة" Memory conterوسيرورة لقراءة التَّاريخ ضدَّ ميله الفطري والاضطلاع بدور فعَّال معترف به في تأويل التَّاريخ عوضًاعن مجرَّد الاكتفاء بدور المعاينة السلبيَّة"[24].

وهذه الذاكرة: " تعترض التَّاريخ ولا تكتفي بتسجيل وقائعه كما هي الحال في الميتارواية التاريخية، إذْ يرفض كاتب الميتارواية التاريخيّة إمكان النَّظر إلى الماضي والكتابة عنه كما كان حقيقة، وإنمَّا يضطلع بدلاً من ذلك بدورٍ فعَّال: إنّه ينتج الماضي مشاركًا مسائلاً مستجوبًا، إذْ يصبح مشروع كاتب الميتارواية هو المشروع الفوكوي للذّاكرة المضادة، فكلاهما تاريخي وسياسي"[25].

وإن كان النّاقد الإنجليزي :"جبب يوري"قد ركّز على فكرة التاريخ كعلم في مقولته"إنّ التاريخ علم لا أكثر ولا أقل يذهب إلى أنّ دراسة وقائع التاريخ، يمكن أن تتم بموضوعيّة شأنها شأن دراسة وقائع الجيولوجيا والفلك"[26].

وهو أيضًا ما ذهب إليه" كارل هامبل" حيث يرى"أنّ التفسير واحد في وقائع التاريخ، وفي علوم الطبيعة وهو تفسير موضوعي"[27]؛فإن مقولة الموضوعيَّة لاتنطبق في هذا المجال على الفكر الرِّوائي القائم منذ أكثر من نصف قرن على ملاحقة"هاجس كتابة تختفي فيها الحدود الفاصلة بين الأنواع الأدبيَّة"[28].فنص" مجنون الحكم" يخلق لدى القارئ مشكلة تتعلق بطبيعة بنائه، ومدى القدرة على تصنيفه كنوع أدبي، إلّا أنّه في الوقت نفسه يفتح الأنواع على بعضها البعض ويجعلنا نعاين بناءً يتضافر فيه السَّردي والتاريخي، لتشكيل فضاء روائي أكثر امتلاء.

وأبرز ملمح يمكن أن نلاحظه في رواية"مجنون الحكم"، هو أنّ صاحبها"حميش"، تخلى عن عنصر الحكاية التي تتنامى عبر السرد لتبلغ نهاية محدّدة، يمكن عدُّها الصيغة النهائيّة، وإنّما نجده يعمد إلى تخييل المادة التاريخيّة، وجعلها أكثر قدرة على مجارات فضاء سردي مفتوح تتناسل فيه الحكايات الفرعيّة، ذات الصِّلة بالشَّرط التَّاريخي، لتصنع ذاتها داخل النّسيج الرِّوائي ككل، وهي حكايا غير مبتورة الصلة مع البؤرة الدلاليّة العامّة، والمتمثلة في تقديم حياة الحاكم بأمر الله، نموذجا للسلطان.

"وخريطة الإنتاج السردي"التي يقوم عليها"السنن التكويني" للرّواية "مجنون الحكم" التّاريخية،و الذي هومجلى لعلاقة الرِّواية والتّاريخ يمكن أن نمثّل لها بالشّكل التالي:

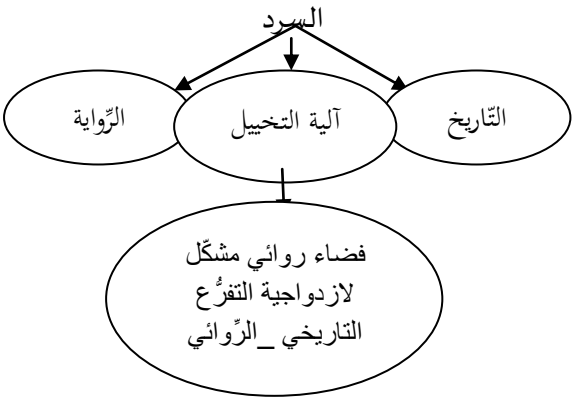

خطاب محيَّن

فكما هو ملاحظ من هذاا لشَّكل فإن الفضاء الرِّوائي بما يقوم عليه من تمثُّل لفاعليَّة التخييل، هو نتاج زمنيَّة جديدة ليست هي الزمن الماضي، ولاالزّمن الحاضر، وإنّما نجدها قائمة على نوع من الوسطيَّة الافتراضيَّة في توسطها لعديد الأزمنة وتبقى "إمكانيات الرِّوائي في التصرُّف أكبر من إمكانيات المؤرخ، لهذا يستفيد من هذه الحريَّة ليزيد من درجة التعبير التَّاريخي، مخرجًا إياه من إرغامات الظَّرفيَّة المحدودة، ومن حتميَّة الوثيقة، ليعمل في الحادثة نظره الخاص وتأمُّله العميق، ليتمِّم بذلك فجوات الحكاية التاريخيّة، ويمنحها بعدًا افتراضيًا يوفِّر للنَّص فيما بعد تمديد الدَّلالات"[29]. ومع ذلك فرواية "مجنون الحكم" بقيت وفيَّة لاستعراض الزَّمن التّاريخي للدَّولة الفاطميَّة بشكل كبير وأعادت إنتاجه في صورة أوضْح، وهذا الوضوح يمكّن من تقديم قراءة ممكنة قدر الإمكان للراهن، ومثل هذه القراءة يمكن عدُّها قيمة مضافة ناتجة عن شراكة الرِّواية مع التّاريخ.

2-2- الحاكم بأمر الله والمدلول السلبي في رسم نموذج معمَّق للسلطان:

إنَّ ما هومثبت من الناحيَّة النقدية و العلمية، أنَّ التاريخ هو علم بالمتحوّل الإنساني، يدرس الإنسان في مسيرته الكونيَّة، في شكل علم إنساني، يقترب في علميته من باقي العلوم الأخرى فقد يؤدّي"البحث التاريخي الذي يقوم على استقراء عدد من الوقائع أو الأحداث الجزئيّة الخاصّة بجانب معيّن من جوانب التّاريخ العام إلى استنباط بعض الصيغ العامةالشبيهة بالقوانين"[30].وإن كنّا في هذا المجال لانستطيع أن نسم المعرفة التّاريخية بالشمولية ؛ذلك أنهَّا ليست قانونًا طبيعيًا "فوقائع التاريخ وأحداثه هي أفعال إنسانية تتحكم فيه إيرادات فرديَّة أو اجتماعيَّة"[31]، إلاَّأن هناك صورا مشتركة تقوم على اعتبار أن معرفة التاريخ تكون بالمتغيَّر أكثر من الثّابت، وبالتالي فالمعرفة التاريخيّة تقوم على استقصاء نماذج متغيّرة من السلوك الإنساني، لمحاولة فهم الإنسان ككائن بشري في سيرورته الزمنية، أين يصبح الوعي التاريخي بماضي هذه النّماذج هو وعي بالحاضر ككل، وهو مايقودنا إلى القول إن ماأثبتته المصادر التاريخية حول "الحاكم بأمرالله" زمن حكم الدولة الفاطمية كجزء من تجربة إنسانية ماضية، يمكن الانطلاق منه في تشكيل وعي بالحاضر، مادامت إمكانات الإسقاط موجودة وحقائق التشابه والتّطابق عديدة، غير أن وجه الاختلاف، أنّ ّفعل الإسقاط الذي يصاحب الوعي بالحاضر، إنمّا هو وليد تاريخ جديد، هو تاريخ المقموعين الذين لا يكتبون تاريخهم، وهو بصفة أدق تاريخ الرّوائي الذي يعالج واقع الاغتراب الإنساني، كما نجده في رواية "مجنون الحكم" فما يصوره" حميش" في هذه الرواية ليس تاريخ الدولة الفاطمية، ولاتاريخ الحاكم بأمر الله، _كما سبقت الإشارة في أكثر من موضع _وإنّما هو تاريخ الرَّاهن في صورته الثّاوية خلف مدارات المرجعي و التّاريخي، هو تاريخ الحاكم بمعناه الإنساني العام والفضفاض الذي يتعدى فكرة النسبة إلى شخص معيّن، ليطال فكرة النموذج بمعناه الشامل القار، نموذج الحاكم أو السلطان في الثقافة العربيّة بصفة عامة في زمنٍ أصبحت فيه حكاية الحاكم أو السلطان "هي التعقيب المستمر للدُّول صعودًا ونزولاً في قالب حكائي سُمِّيَ أشخاصًا في الواقع بعضهم أصبح رمزًا للسلب الإنساني، وبعضهم أصبح رمزًا للإيجاب، لكن التاريخ يريد من خلالهما، أن يرسم السُبل المثلى لحياة لاحقة فيها إنماءٌ لماكان إيجابيًا ونفيّ ٌلما كان سلبيًا"[32].

وصورة الحاكم بأمر الله في رواية"مجنون الحكم" هي صورة تنحاز إلى التكامل البنائي؛ فاختلاف المواقع والرؤى والأحداث أعطى الشخصيّة أكثر من بعد، وجعلها تقترب من مصاف

الرؤية المتكاملة، دون أن يربك تعدد الأبعاد حقيقة هذه الشخصية، وكأن شخصية"الحاكم بأمرالله"، تعكس وجوه الطبيعة الإنسانية المختلفة التي تتداخل فيها ظلال الحكم والرَّعيَّة والعصاب والعدل والظُلم و الإنسانية واللاإنسانيّة.

فهي شخصية إشكاليَّة _إن صحت العبارة_، ينشطر وجودها في النص الروائي، لتأخذ أكثر من صورة وأكثر من ملمح. وقد اعتمد الروائي" بنسالم حميش" على مصادر تاريخيّة عديدة لتجميع صورة الحاكم بأمر الله في قالب دلالي يسعى إلى تحقيق خاصية التكامل مع المقصديّة الرّوائيّة منها:

- الخطط للمقريزي.
- وفيات الأعيان لابن خلكان.
- بدائع الزهور في وقائع الدهورلابن إياد.
- وصلةأوتيخا ليحي بن سعيد الأنطاكي.

غير أنّ مجمل هذه المصادر معارضة للدَّولة الفاطمية، وبالتالي فالآراء التي ستبنى عليها حول هذه الدولة بصفة عامة وشخصية الحاكم بأمر الله بصفة خاصة، ستكون ذات طابع سلبي، "إلاّ أنّه خادم للمدار النصِّي"؛ وقد عمد الروائي "بنسالم حميش" إلى بناء علاقة التوازي بين الخطابات التاريخيّة والمضمون الروائي في تجليته ملامح هذه الشخصية وهو ما يثبته حضور الشّاهد التاريخي ممثلا في العتبات النصيّة في بداية كل فصل، ففي الفصل الأول وفي سياق إثبات طابع الجنون في ذات الحاكم؛ يأتي إثبات شهادة الخبل من خلال مرجعيات تاريخيّة يوظّفها الرِّوائي بتوقيع كل من:

- الوزير جمال الدين.
- سبط بن الجوزي.
- الحافظ الذَّهبي.
- المقـريــزي .

"وكان رديء السيرة فاسد العقيدة مضطربًا في جميع أموره، يأمر بالشّيء ويبالغ فيه ثم يرجع عنه ويبالغ في نقيضه"[33]

وإن كنَّا نحكم سلفًا على" مجنون الحكم" بأنها رواية توسلت بالتَّاريخ لتشييد التجربة الرّوائية وإثراء قيمها الرمزية، فإن هذا التوسّل تمّ في إطار معالجة روائية قائمة على الافتراض بما يلائم المنطق العام للشَّرط التاريخي، ومنه فقد عمد "حميش" إلى ملء بياضات التاريخ وسد فراغاته، وذلك من خلال تقديم نموذج ليس جديدا ولكنه معمم لشخصيّة الحاكم.

أما من حيث انتمائه الأجناسي، كان لزامًا على الرّوائي "بنسالم حميش" أن يحرك فاعليّة التخييل باتجاه صناعة دلاليَّة جديدة، لهذه الشخصية التي أصبحت تقوم بدور بارز في هذه المرحلة التاريخيّة (مرحلة حكم الدولة الفاطمية)، وذلك من خلال ما تمّ إسناده إليها من محاور دلاليّة.

ويمكن القول أن لجوء "حميش" إلى التاريخ جاء مشروعًا فـ"في كل واقع سياسي مثقل بسلبيات الاحتلال ومؤامراته وجرائمه والحكَّام وفسادهم كان الأدباء يُبددون سحابة اليأس ويعيدون الأمل والتفاؤل، وذلك باللجوء إلى أسفار التاريخ"[34]. وهو ذاته منطلق "حميش"

2-3- الحاكم بأمر الله- نحو صناعة دلاليّة لنموذج السلطان:

تعدّ الكتابة الروائيّة ذاكرة مفتوحة تغوص بواسطة فاعلية التخييل، لتطال مواقع وفراغات لايستطيع التاريخ الوصول إليها .وإن كانت الرّواية التاريخيَّة تفضل فكرة "التعتيم على التمييز بين الوهم والواقع، وبين الحقيقة والخرافة، وبين الرّمز وما يمثَّل، فهي تطلب منا أن نقرَّ بأنّ للتمثيل سياسة"[35].وهو ما تجسّد في رواية "مجنون الحكم" فشخصية الحاكم بأمرالله، مثال لشخصيةمتمرّدة، يظهرها النَّص الرّوائي على أنّها شخصيّة إشكاليّة، تسعى إلى تطبيق قراراتها بما فيها من تعسُّف. وصورة الحاكم بأمرالله_على مدار الرّواية بأكملها_تعزز ضربًا من النرجسيّة، تجعلها أقرب إلى الديكتاتورية منها إلى صورة العدل، وهو ماتكشف عنه المنظومة الخطابيّة في الرّواية؛حيث يرد على لسان الحاكم بأمر الله" كم تأسفت لقوم ماتوا بغير سيفي، وأنت ياخالع النعلين كم يؤسفني أنأ قدّر موتك! ولو لم يكن تعلقك بالحياة أضعف من خيط العنكبوت، لماترددت برهة في إلحاقك بنعشك"[36].

إنّه خطاب يكرس مفهوم النرجسيّة في الأنا الحاكمة وعلى نطاق واسع حين تمتلك هذه الأنا حتى الأنفاس والحياة، ويصبح المؤسف في وجودها أنّها لم تتمكن بحدّ سيفها من الفتك بأوائل من ماتوا من النّاس.

ويتخذ الرّوائي من هذه المنظومة الخطابية، محفلاً سرديًا يصور هالات الظّلم عبر المسار الحكمي، أين تظهر النرجسيّة في أجل صورها، لتعيدنا إلى بداياتها الأولى تأسيسًا لتاريخها في الذّات الحاكمة، فهي ليست وليدة فترة الحكم بالنسبة للحاكم بأمر الله، إنّها متعلقة بطفولة شاذة، ويظهر هذا على لسان "الحاكم" في قوله:"ياحميد الدّين ماأريد أن أسوِّد به الأوراق؟ كل ما لم يدركه هذا المؤرخ ولم يره، وكل ما غاب عن أسفاره الثقيلة، من صيحات كامنة وصدوع وحقائق[... [فعد مثلا ً إلى صباي ترى معي ماأراه[...] على سنديانة، كنت وأنا دون العاشرة أعتلها كل صباح، وأقضي ساعات أطلي غصونها الفارعة بالدّبق المبثوث بحبات الزرع، ثم اختفي وراء غصن ملفوف بالأوراق، فلا ينتصف النّهار حتى تكون الغصون الدّبقة قد اكتظت بضحاياي من الطيور و الحشرات، فآخذ القريبة منها فأخنقها أو أذبحها، وأنال الأخر ى بهراوة ساحقة، وكانت قطط القصر لاتتأخر عن اجتماعها من تحتي لولائم تأتيها من عندي، وكثيرًا ماكنت أقتل القط المغالي في الأكل و السَّطو"[37]، ويردف الحاكم، هذا المقطع بمقطع آخر يروي فيه حادثة تتويجه كملك يقول فيه"فأنزلني من السنديانة وأخبرني بموت أبي، ثم وضع التاج على رأسي وقبل لي الأرض وبايعني هو والنّاس على الخلافة، وكنت وأنا أخضع لمراسيم التنصيب، أودّع الطيور والحشرات وأتنازل حزينًا مكرهًا عن عرشي في مملكته، طالبا عزائي وسلواني في أن يمنحني عرشي الجديد نفس المشاغل و اللذّات"[38].

ويلتقي في هذاالسياق المعطى الرّوائي مع المعطى التاريخي المرجعي، فالرّوائي ينطلق من خطاب التاريخ في توقيعه صورة الحاكم ضمن تبادل وظيفي علائقي يخلق نوعًا من الانزياحيّة على مستوى الماهية، لتتشابك التفاصيل والأزمنة والفضاءات مجلية صورة الحاكم، فما تقره كتب التاريخ حول الحادثة :"فبادر برجوان، وأنا في أعلى جميزة، كانت في الدَّار فقال : انزل ويحك.[..] قال فنزلت فوضع العمامة بالجوهر على رأسي وقبَّل لي الأرض وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين [...]وأخرجني حينئذ إلى النّاس على تلك الهيئة"[39].

غيرأن الخطاب الرّوائي لايكتفي بالحقيقة التاريخيّة وإنّما يأخذ في توسيع أفق الخطاب، ما يلغي التوجُّه الشكلي لخطاب التاريخ، ويمنحه إمكانيات الإشعاع الدلالي على المحيط الرّوائي بكامله.

وتتبنى الرّواية منطق تبرير الفعل الرّوائي للحفاظ على مصداقيّة الشّرط التاريخي، وذلك من منطلق خلق نوع من التوافق مع شرط التخييل، فما يقدّمه المشروع الرّوائي على أنّه ضرب من النرجسيّة من حاكم مضطرب السلوك، تأخذ الرّواية في تبريره على أنّه وليد ضعف الرعيّة وانصياعها وراء قرارات حاكمها، فهي نرجسية مبرّرة بأكثر من عامل، بما فيها عامل الرعيَّة ذاتها كعنصر مفعول فيه، والإفراط في الولاء، منح الحاكم السلطة المطلقة، وجعل كل تصرفاته مشروعة، وسيّر بذلك يده على جميع الرعيَّة بما فيها العلماء وناقلوا التاريخ، كمثال للطبقة الواعيَّة :"نادتني الحضرة المقدَّسة إليها، وها إنّي ألبي النّداء طائعًا، وافتح أوراقي كلها لما تريد أن أقيّده بقلم الوفاء، من جليل كلامها ودقيقه، وناصع برهانها وموثوقه ؛فحدثني يا مولاي بما تريد وترضى ، أشرِّف به ناعورة الزَّمان، وأصقله في ذاكرة الأجيال "[40].

وقد كان للولاء دوره الحاسم في ترجيح كفة الظّلم، وفي تعميق البؤس التاريخي من خلال تأييد الحاكم وستر العورات التي ينبغي كشفها في عرف الكتابة الرّوائية، فرغم أن الظلم والتعسف بدا مرَئيا وبقوة، ولكن ليس هناك صرخة مدويّة لإبراز فداحة الوضع، بل على العكس تماماً، ظلت في كنف دولة الفواطم أفواه لاتني تصف الحاكم بألفاظ القداسة والتعظيم، وظلت هناك عيون تتابعه بالتجلّة والوقار "مولاي إني لاأنصرف عنك إلا إليك، ولاهم لي ولاشغل إلا الدعوى المباركة وإصلاح ماتداعى منها..."[41].

فلا تجاوز للوهم الزائف في قدرة الحاكم على بناء دولة الحق و العدل، وتظلّ الرعيَّة مأسورة خائفة ذليلة، الأمر الذي يدفعها إلى اختيار السبيل الأسوأ المتمثل في الإذعان والولاء والطَّاعة، وهو سبيل غالبًا ماكان يتعزّز برغبة عارمة في تأليه الحاكم، يظهر هذا في قول الكرماني: " مولاي إني لاأرى من جهتي في هذه الذكرى إلّا دليلاً آخر على أنّك الإمام، قائم الزَّمان، المخاطب في آية الله الكريمة﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فما بعثت إلّا كما، بعث الأنبياء والأئمة من قبلك تحيّر بأفعالك الأفهام وتمتحن بها بواطن الأنام"[42].

فهذاالخطاب المجتزأ من نصّ الرواية يعكس حالة من الوعي الزائف، واعتناق لعقيدة من ضلال وجهل في تأليه الحاكم، كما أنه مصادرة لقيم العدالة الإنسانية، وترسيخ لديكتاتوريّة مطلقة باستخدام حجج واهيّة، فالحجة الدينية _على الرغم من بلاغة النّص القرآني_تكشف

عن منظور ساذج في التّعامل مع الواقعة الدينيّة، فجاءت الحجة ذات دليل مرجعي قوي، غير أنها أستنبتت في سياق نصّي واهي ومزعوم يعكس حقيقة انحجاب الوعي.

إنَّ مثل هذا الولاء جعل الأنا الحاكمة تستبيح كل القوانين لصالحها، بما فيها قوانين الطبيعة، وقوانين الإرادة الإلاهيّة، فمنحت نفسها بذلك أكثر من شرعية، إذ تمضي الأنا الحاكمة في تعزيز الطبع الديكتاتوري عبر تمفصلات السرد، في شكل أحداث مؤطرة متشابكة دلاليًا وسرديًا.

فتأتي حادثة إحراق مصر كمنعرج حاسم في الرواية، لتكشف عن شخصية تقدم نفسها في إطار عُصابي، وهي تنشد السلطة المشفوعة بكلّ طاقات الكبر و الغلواء:"وأهل مصر مرضى التعلُّق بالحياة، إن أتوني حبو كالزواحف الذليلة المقهورة، فلا عفو لهم عندي هذه المرة ولا أمان"[43].

غير أن إحراق مصر مرتبط في الإطار الروائي بحادثة سابقة له، تعمّق لعبة التأشير الدلالي للظلم الحكمي، تمثلت في حرقه الشونة، لتمتيع ناظره"بدت على الحاكم فرحة جنونيّة، وقال بلهجة حادة نعم ما ذكرتني به يا مختار، وتتذكر أيضًا أنّي أحرقت الشونة لتمتيع ناظري بمشهد النَّار، كان الأمر لهوًا ومزاحًا في تلك الأيام....."[44].

فهذا الخطاب يضمر ضربًا من الديكتاتوريّة المصحوبة بشبح الغرور الواضح المعالم، فالحاكم بأمرالله، يحرق مدينة لتمتيع ناظره بمنظر اللّهب، وتأتي المنظومة الاصطلاحيَّة خادمة للمنطق الدلالي في هذا الإطار"كان الأمر لهوًا ومزاحًا في تلك الأيام..."[45]؛وهو ما يثبت أنَّ الحاكم بأمر الله كان متمردًا على جميع السلطات: "سلطة الدين وسلطة الدولة وسلطة المال، فكانت ثقافته ثقافة مُروحنة خارجة عن صلابة العقيدة، ومتمردة على مطالب الطبيعة، لهذا كانت مواقفه العنيدة ضد الأئمة والقضاة والطامعين في السلطة من قوّاد الجيش خاصَّة "[46]، وفي امتثال الرعايًا الفاطميين خير ما يشي ببروز مفهوم الاستبداد في الدولة الفاطميّة، كما صوّره "الكواكبي"، الذي يقول بفكرة:"الفصل النّوعي الذي لابدّ منه، بين الحاكم الذي لا يسأل والمحكوم الذي لاحقوق له، فمن يسأل غيره ويراقبه يشبهه في الكيف، ويساويه في الحقوق و الواجبات، على خلاف الرعيَّة المستبد بها التي يلتبس عليها الفرق بين "الإله المعبود" والمستبد المطاع بقهره"[47].وعليه تنعدم أحقيَّة مساءلة الرعيَّة لمن يسوسها "لانتفاء النسبة بين عظمته ودناءتها"[48].مما يجعل العلاقة

بينهما قائمة على مبدأ اللاتكافؤ الذي يبثّر منطق الظلم، وهو ما سيجعل الرواية تسير باتجاه تأبيد هذا الاستبداد، وإظهار عوراته عبر توسيط فنّي، يشرك وعي الرعيّة كجزء من البرنامج السردي العام، يتولى كشف فداحة الوضع، ويدفع بالتخطيط الرّوائي إلى استكمال صورة الحاكم.

2-4- وعي الرعيَّة نحو استلاب معمَّق لمفهوم السلطان:

إنَّ رواية" مجنون الحكم" في تصويرها لواقع الحاكم، تعد رواية مزدوجة المنظور، إذْ تعنى بالشخصية الحكائيةpersonnage ، كما تعنى بالشخصية في الواقع العيانيpersonne، وهو مطلب جعل رواية " مجنون الحكم"، تتجاوز المجال الدلالي الشحيح، لشخصية الحاكم بأمر الله، لتطال شخص الحاكم كنسق بنيوي وجودي، يتفرع منه الهيكل الدلالي العام، وهنا تصبح الشخصيّة الحكائيّة كما يرى ذلك النّاقد الفرنسي "ميشال زرافا" مجرد علامة فقط على الشخصيَّة الحقيقيَّة" [49].

فهويّة شخصيَّة "الحاكم بأمر "الله ليست ملازمة لذاتها، وإنّما هي تمثّل شخص الحاكم بصفة عامة، وكما يرى" فيليب هامون"، فإن الشخصيّة تصبح "هي الحكي "[50].وعليه تجنح شخصيَّة الحاكم بأمر الله عبر المسار النصّي الرّوائي، إلى التزوّد بأكثر من ماهية؛ فهويتها موزّعة على كامل النص، ومفهوم شخصية الحاكم بأمر الله يستند قصرًا إلى المفهوم العام الذي انطلقت منه الرِّواية في تصويرها لهذاالحاكم، ولدلالة الحاكم بصفة عامة.

ويسعى الروائي عبر الجسد النصّي، إلى اختلاق وعي جديد بحقيقة السلطان ؛انطلاقًا من تأييده لوعي الرعيّة؛ إذ تصبح الرعيّة بمثابة التأشير الضمني للوعي المتعالي، الذي يسمو عن واقع الإذعان فيشتغل الرّوائي على أنوية التاريخي، منتجا- على هدي منه- خطاب الرعيّة، وهوخطاب الوعي المغيب و المنحجب، كما أنّه منظور الروائي الذي يسمو عن قداسة التّاريخ، فإذا انطلقنا من تصوّر مفاده أنّ التاريخ"تعاقب غير متّصل ضمن الأحداث بلا هدف أو معنى متعالٍ "[51]، فإننا وبالموازاة نرجّح أنّ فكرة الوعي المتعالي هي وليدة رؤية المؤلف، الذي يشرك الحيني في قراءته للتّاريخي، ويبقى الأخير بمثابة النموذج المرجعي الإرشادي، الذي بناءً عليه تتحدد الرؤية الموازيَّة.

وقد اشتغل الرِّوائي على محور وعي الرّعية، كبؤرة دلاليَّة يتولد منها الخطاب الحيني التبصيري؛ والذي سيؤدي إلى تراجع نبرة التجبُّر في الأنا الحاكمة، حين يعايش الحاكم بأمر الله

قدر الوهن وتمرّد الرعيَّة، الذي أضحى يفوق كل مجهوده البشري، يظهر هذا في قوله:"ورطتي اليوم ليست مع التّاريخ، بل مع نفسي المحزونة، لقد هنت يا مختار، وبخست وتجرثمت فصرت أضمر صيحة لو أطلقتها لاهتز القصر و الجوار، وأغذي فكرة لو نفذتها لأتت على مصر ومن عليها "[52].وفي رده على الكرماني يقول:

"لا تذرذر الملح في الجرح ياحميد الدّين فهذا الكلام أتاني منك بعد فوات الأوان، وتكرّره الآن على مسمعي والأوقات صارت تعدّ عليّ و الأنفاس، فكيف ليّ اليوم أن أفتح الصراع مع دعاتي وأنا مجدٌّ في إخماد قلاقلي و صراعاتي؟ [...] ألم تقرأ سجل أماني لأهل الذمَّة بالعودة إلى بناء ماهدمت من كنائسهم وإقامة أعيادهم و شعائرهم ؟تعبٌ أنا ياحجّة، ومتشنج ومريض"[53].

إنّ ما يقوِّمه الرَّمز في رواية" مجنون الحكم" من مفاهيم تتعلق بالحاكم والسلطان إنما نتج عن تجلّي شخصيَّة الحاكم ومآل إليه من سقوط، أعقب وعي الرَّعيّة المستضعفة بحالها الكالح "وستقوم الرِّواية بدورها في اقتناص أنويَّة السقوط من المرجع التاريخي، لتقوم بتحيينها بصيغة تلفظيّة تشحن الملفوظ السابق باكتناز دلالي له قدرة الإشعاع على محيط بكامله من الاستغلال والبؤس والعنصرية غير المبرَّرة"[54]؛فالحاكم بأمرالله من الأشخاص المرجعيين "الذين كشف التاريخ عورتهم، وأعادت الرِّواية الكشف عن تجردهم من الإنسانية بالتصوير البطيء"[55]

وقدأبدع الرّوائي في اختلاق نهاية محتومة لهذه الشخصيّة تقترب من النهاية التاريخية الحقيقيَّة، لكن الرّوائي اختار أن تكون نهايته نهاية تراجيدية بطيئة، مصحوبة بالوهن والضُّعف والإحباط النفسي، وهو ما يقرّه الحاكم انطلاقًا من فهمه لذاته، وانطلاقًا من اعتبارات فنيّة يريدها المؤلف، يقول الحاكم بأمرالله: "أين نحن الآن من حدودنا العليا و السفلى؟أين نحن من موجوداتنا وعقولنا وأفلاكنا؟أين نحن من مرموزات أحاديثنا وأعدادنا ومن حسابات جملنا؟ تصدَّع الصّرح يا حُجّة، وهوى عالمنا الجرماني فوق رؤوسنا فقاعات وطيوفًا فانيَّة"[56].

إنّ صورة الحاكم تأخذ في التلاشي شيئًا فشيئًا، وهو تلاشي يمّس دلالة الشخصيّة أكثر ممّايمسّ وجودها الرّوائي، فوهم المكابرة انتهى في ذات السلطان، وقيس الشّاهد فيها بالغائب، وزمن الديكتاتوريّة ولّى وانقضى، ولم يبق منه إلا آيات ارتداد، تبشَّر بربيع فاطمي، وهو ماظهر على لسان الحاكم: "لا أمر لي اليوم ولا أزمة إلاّ مع نفسي الكليّة، وهذه النّفس باتت تعذبني

وتسألني أيّها المودّع للحكم الذّاهب نحو الختم، هل في عهدك لما سست ووافقتك النجوم وأجرام الفضاء، أوفاضت عيناك يوما دموعًا وفرحة وتمّ لك الابتسام [...]أو كنت كمن ضاجع وانتشى فراح ينشر السلام"[57]؛وهذا الحصار النّفسي المصحوب بالأثر الذي تركه الحاكم في نفوس الرعيّة، سيجعل الحاكم يعطي تقديره الخاص لذاته ولتصرفاته، انطلاقًامن آراء الرّعية، وهو أمر طبيعي بالنظر إلى علم النّفس الذي يقرُّ "أنّ الشعور بالذّات ينبغي إذًا أن يكون مربوطًا بتكامل الأنا (بالمعنى الفرويدي)، واللأنا العليا ويستلزم إذن علاقة مباشرة بالآخر المستبطن"[58]وقد نجم عن هذا التصُّور تقديرات عديدة من الحاكم لذاته، في شكل إحالات صريحة وضمنية، تحضر وبنوع من الحساسيّة: "والحقُّ المحصَّل الذي لاغبار عليه، ولاتزويق أنّي عشت طول حياتي الهوجاء، أحمل في رأسي عبء نعش السّماء [...]ليس لمن يغوص ويتعمّق أن يحكم أو يسوس [...]الحق ياحجّة أنّي دخلت في التضاد ونزلت حتى صرت طرفًا فيه وليس سيدًا، ضربت الرَّعيَّة بآيات فرمتني بأضعافها، أقمت أعيادي ومواسمي فأقامت نقائضها"[59]

وهذه النتيجة تكاد تخرق القاعدة المتعارف عليها في طبيعة الحكم، كونه يرتبط في الغالب الأعم بعظيم الرجال، في حين أنّ ماتقدّمه الرِّواية عن الحاكم بأمر الله بصورة خاصة، وعن الحاكم كنموذج في صورة رمزية هو نسق سلبي، توسعه الرِّواية باستمرار شأنها شأن أي عمل إبداعي موجّه.

ويظهر هذا في خطابات الحاكم عن نفسه التي تأتي كإستراتيجيّة خادمة لمنظور الرّعية الذي هو منظور الرّوائي، حيث يقرّ فيها الحاكم بجوره وطغيانه خادمًا بذلك الجوهر التخييلي للخطاب الروائي، فصورة الحاكم مقصودة والخطاب المتخيّل جاء خادمًا لهذه الصورة، أين يظهر الحاكم في ثوب طغيانه وهو يعترف: "الرّعيّة ياحجّة لم تعد من الصّنف الذي يطيق انتظار العدل إلى آخر يوم في الدّنيا، ولم تعد تريد امتحانًا ولا اختبارًا، الرعيّة اليوم صارت تستعجل العزّة والإنصاف و تطلب التمتّع بالأنعام حالاً"[60].

إنّ في هذا الخطاب تكريس لفكرة أن الحاكم، لم يكن منصفًا وهو ما دلّت عليه السياقات التلفظية"، فالرعيّة لا تطيق انتظار العدل إلى آخر يوم في الدُّنيا، صارت تستعجل العزَّة والإنصاف وتطلب التمتع بالأنعام حالاً"[61]

وفيه أيضًا تكريس لنموذج الحاكم، وحقيقة السلطان، في جنوحه نحو استخدام القوَّة، عوض اللُّجوء إلى الحلول السلميَّة في شكل تعزيز للغطرسة"فهل أخرج وأخاطبها كعيسى:"أناابن من في السَّماء ؟ أوأهدّدها صائحًا أنا الطُّور والكتاب المسطور[...]أنا إمام المتَّقين والعلم المبين ولسان المؤمنين [...]والله لو فعلت هذا وماشابه لتلقاني السكان بالتطبيل والتغبيط مردِّدين كلامي بلحن الاستهتار و التنكيت [...]راقصين بالبطون وعلى واحدة ونص"[62]؛ إنه خطاب عميق الجذور في دلالته، يعكس وعي الحاكم برعيته، كما يعكس وعي الرعيّة بحاكمها، "مردّدين كلامي بلحن الاستهتار و التنكيت"[63].

يشكل الفضاء الرِّوائي مايمكن تسميته بالتبرير الفني المنطقي، فتمرّد الرعيّة، ماكان ليلين جانب السلطان الذي ألف إذعانها وولاءها والانقلاب القيمي الذي أحدثته الرعيّة في فهمها لحقيقة السلطان بعد فوات الأوان، جعل الحاكم يصرّ على فكرة الانتقام ، وهي مؤشر دلالي لاستكمال صورة السلطان. فيعمد الأخير إلى تثبيط هذا الوعي بوعي مضاد، هو وعي بضرورة سحق هذه الرعيّة وتقديمها كمثال وعبرة لكل متجبِّر على الحاكم، وهو ماسيتكفل الفضاء الرّوائي بكشفه في شكل معمار سردي، يتولى كشف الستار عن أنويّةالطغيان في ذات الحاكم.

فبعد ما أضحى الوضع على غير عادته والحاكم بات مصدرًا للاستهتار و السخرية، ولاسبيل له لدرء هذه الفتنة إلاّ بالحرق هذا الفضاء المشهدي الذي تقرّه كتب التاريخ، وتتولى الرِّواية كشفه متعمَّدةجانبه الرَّمزي الذي يمثل الاستلاب القيمي في الحاكم أوالسلطان. "إذن كفانا لغوًا ولا مناظرة ولا مفرَّ لي ولامخرج من أن أكون النّار المتقدة التي تطلع على الأفئدة"[64].

يستمدالحاكم شرعيّةالحرق من تمرّد الرعيّة عليه، ويراه حكما مشروعًا فهو وليَّهم وهم عبيده : "ياأيُّها العبيد مهّدوا لي مصر، وسووا اعوجاجها فهي اليوم لكم لكي تحرقوها وتنهبوها انتقامًا لما اقترفته في حقِّي من فادح الهزل و السخريّة، ولاخلاص لها مني ومنكم وقد تفرعن أهلها عليّ و تطاولوا"[65]. حيث تبلغ هستيريّة خطاب الانتقام مداها إلى أن تصير مشروع عقاب إلهي، يلجأ فيه الحاكم إلى الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم فيستأنف الخطاب السابق بقوله:"ولوقدّرت لأرسلت عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدّم أولاتركت جلودهم كلما نضجت بدلتهم جلودًا غيرها"[66].

وهومأخوذ من واقعة تسليط المولى تبارك وتعالى العقاب على بني إسرائيل بعد كفرهم بموسى وعصيانهم لأمر الله يقول تعالى:﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ لطُّوفَانَ و ٱلْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** ﴾[67].

وفي موضع آخرمن سورة النساء يقول تعالى:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا**﴾[68].وهوعقاب توعَّد به المولى عزّ و جلّ من كفر بمحمَّد صلى الله عليه و سلم.

تدمج الأنا الحاكمة الوعيدين الإلهين في نسق تهديد و وعيد، لمن أعلن عصيانه من الرعيّة، والواقع الفعلي المستشف من هذا التهديد، هو واقع يعكس حالة سكر بالحُكم جعلت للرعيّة خيارين، فإمّا الإذعان وإمّا أن تسحق أمام غياب رصد الضمير في الأنا الحاكمة، ويبقى للغة دورها الفعال في ترسيخ وتجذير خطاب التألُه و التسلُط، واللُّغة في هذا المجال "تحمل كل هذا العنف المدمِّر، لأنها تحمل آثارًا من حقيقة قديمة مضى زمانها ولأنها مجال العمل لإعادة بناء هذه الحقيقة انطلاقًا من رغبة قهريّة في النفوس"[69].

وهو مااضطلعت به لغة التسلط في أكثر من موضع، فبعد إحراقه لمصر"قضى الحاكم أيامًا في قصره قرير العين، وحال نفسه أميل إلى الانشراح [...]مردِّدًا منشدًا.

- هكذا يأتي تضييق الجرح وذاكرة الهوان...
- بذاك المنظر المكتظ بالنيران الطليقة المتقدة.
- بهذا الهبوط إلى الذعر المستبد بالوجوه و الأفئدة.
-وهذا العقاب بالدّخان والهشيم واندلاع الأرمدة[70] .

وهكذا تتبدّى ملامح صورة الحاكم، _التي شكّلت في التأطير النصّي مثالا أنويا _صورة تختزل ديكتاتوريّة فجّة لا تكتفي الرواية بمجرّد إبرازها، بل وتجريمها أيضا عن طريق خلق مسالك دلاليّة جديدة، من خلال إشراك وعي ومنظور الرعيّة، وهي مسالك تسير بالرواية إلى ابتداع نموذج عاملي للسلطان وتأبيده.

تقترب صورة الحاكم بأمر الله في"مجنون الحكم "كثيرًا من صورة الحاكم في عديد الأزمنة بما فيها الزّمن الحالي، ذلك أن لها نظائر وأشباه ؛فشخصية الحاكم تعكس حالة من الخمول و الدكتاتورية السلطوية، وهو خمول ستمنحه الرعيَّة المستضعفة مباركتها، فيأخذ

بذلك صفة القدرية، ويصبح قدرًا محتومًا، والتاريخ المتعلّق بشخصية الحاكم في هذه الحالة، تطاله فاعلية التمديد التي تجعله: "منفتحًا على الحاضر وقابلاً للإشعاع دلاليًا على مساحات أكبر من فترة الحاكم بأمر الله الفاطمي، بل تلائم كل حاكم مثله أو قريب منه، كما أنها دلالات تمتد بأعناقها إلى حيث تناسب كل زمن فيه أشباه و نظائر لصورة الفترة الحاكميَّة"[71].

وعليه فصورة "الحاكم" في نص مجنون الحكم هي صورة فنيّة رمزيّة، لها شعريتها وإشعاعها الدّلالي الذي يتعالى على زمنية التاريخ، فكما يرى النقّاد:"إنّ الصورة الشعريَّة كيان يتعالى على التّاريخ، والرِّوائي "بنسالم حميش"في عودته لشخصية الحاكم بأمرالله رمزا للسلطان"يقوم بترحيل الحاضر إلى الماضي ويرسم صورة ثابتة للقمع والسلطة من خلال تأبيد الماضي وتصعيد مفهوم القمع"[72]، وبقراءة عصريّة لمضمون رواية مجنون الحكم، يمكن القول إنَه من غير الممكن قراءة شخصية الحاكم بأمر الله، دون مرورها عبر فعل التلقي، في الزَّمن الرَّاهن، ودون تشخيصها في سياق سلطوي شبيه بالسياق الذي عرَّضت فيه فـ: "تركيز القارئ ينتقل بتوالي فصول الرواية من تتبع لعبة القناع التاريخي إلى الاهتمام بمفهوم السلطة وطبيعتها وأساليب عملها والآثار المدمرة التي تتركها على المحكومين"[73].

وليس المهم في هذه الحالة المرحلة التاريخية في حد ذاتها، كما ليس المهم "إقامة توازٍ تاريخي بين الحاضر الماضي، بل فهم العناصر الأساسية التي تؤسس جوهر السلطة بغض النظر عن الزمان و المكان، وسيساعدنا ذلك بالطَّبع على إلقاء ضوء كاشف على الراهن و مجرياته"[74]؛ والماضي الذي يتطلّع له الخطاب الروائي التاريخي هو في حقيقته إبصار للرّاهن، فكما يري "فيصل درَّاج": "يصبح الماضي في الوعي التاريخي وعيًا بالحاضر" [2]، ضف إلى ذلك أن الأصوات المتحاورة في رواية " مجنون الحكم" تعكس كلها وجوه الطبيعة الإنسانيّة الحاليّة، التي تتداخل فيها سطوة الماضي والحاضر معًا مع رخاوة الوجود الحالي. كما أن كل الشخصيات في إحالاتها المختلفة، تحيل على خطابين اثنين (خطاب السلطة القامعة، وخطاب الرعيّة المقموعة) بحجة القوانين ؛إذ لا تتحدث رواية "مجنون الحكم" عن هزيمة عسكرية أو سياسية، وإنّما تتحدث عن هزيمة زمن آني، هش الأركان أمام زمن تاريخي سحيق، والقاسم المشترك بين الزمنين هو السلطة المستبدة وعامل السلطان القامع النمطي، الخارق لقاعدة الرواية التي تعنى بالبطل الإيجابي في الغالب الأعم.

ولعل النموذج العاملي لصورة الحاكم أو السلطان الذي أراد الروائي "بنسالم حميش"تجسيده في رواية "مجنون الحكم"، جاء استنادا إلى فكرة تغييب البطل النموذج أو البطل المخلص الذي اعتد به كقاعدة روائية قبل نكسة حزيران، إذ يذهب معظم النقاد إلى أنّه وقبل هذه النكسة ظهر في الروايات العربيَّة مايمكن تسميته بالبطل المخلص الذي يعرفه الشمالي على"أنه الكيان المميز الذي تنبعث فيه انتصارات أصليّة سابقة، تعطفه لزوما على خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص[.. .]وهو الموقع الذي تتكثف فيه إرادة الأمة الماضية و القادمة"[75].

ومع تصاعد وتيرة الانهزام السياسي تم إلغاء فكرة المخلص في القاعدة الرّوائية نظرًا لطغيان واقع الانكسار، الذي تجسد أكثر شيء في هزيمة حزيران، فقد ألغت هذه الهزيمة كل احتمال نقدي لوجود فكرة المخلص "و استبقت الخطاب الانتصاري بأشكال متفرقة، لم يكن الخطاب المطمئن إلى روح الأمة بحاجة إلى كتابة التاريخ، وهو لا يؤمن به على أيّة حال، تاركً االروائي يسوغ تاريخا مكبوتًا، يهتم بالسلطة المستبدة ويسائل تاريخًا الذي لايكتبه المؤرخون"[76].

وعلى هذا الأساس جاء التاريخ إلى الرواية، على وجهه القابل لكل أشكال الاختزال و التمطيط، وإعادة الصياغة، فليس واقع الانتصار هو مايبحث عنه الروائي، بل تمظهرات الواقع المعيش، التي تجد صدى لها فيما هو تاريخي، ويشكل الخطاب التاريخي خطابًا حاسمًا في صياغة التصوُّر العام والمعنى الدَّلالي الإجمالي للعالم الروائي، الذي هوبالأساس اشتغال على النواة التاريخية.

حاد "بنسالم حميش" في رواية مجنون الحكم عن تاريخ الحاكم بأمر الله، ليؤسس لرؤية جديدة حول صورة السلطان، فلم يكن يرغب في تقديم خدمة للوثائق التاريخية الخاصة بحياة الحاكم بأمر الله، أوأن يكون تابعا لها،

ولغة"حميش"في هذاالمجال هي لغة بالغة الغنى، بقدرتها على رسم رَاهن السلطة وَتصويره أصدق تصوير، كما أنها لغة تخدم العمق الذي يرومه الروائي، بدءًا من تبنيه قضيَّة تاريخيَّة شائكة وصولا إلى محاولته النَّفاذ من خلال شرط التاريخيّةإلى صورة الحاكم أو السلطان، وكأن الرّوائي يبحث فيما كان يمكن أن يحدث أو أنَّه يقيم فرضيات لقراءة واقع الحكام في فراغات التَّاريخ، "كما يجيب "حميشّ" من خلال رواية "مجنون الحكم"عن أسئلة متعددة من واقع الإنسان، تتعدد

بتعدد واقع الشخصيات وتتعدد الحالات التي تنتاب الشخصيّة الواحدة كما هو الحال بالنسبة لشخصيّة الحاكم بأمر الله، وحميش وهو يحاور الماضي، يسعى إلى استعادة هذا الماضي من جديد وكأنّه يحدث الآن، فهو يحيي الماضي ويرتكز على ثرائه في تقييم الحاضر ثم نقده بناءً على نفاذ التجربة الماضيّة.

الخلاصة:

أقام بنسالم حميش من خلال التاريخ عالما مقيسًا وجعله يساير الرَّاهن خطوة بخطوة مؤسسا لنمذجة واقعيّة عن صورة السلطان، تغيب خلف ظلال المعطى التاريخي؛ فعدم الاستقرار الذي يشهده الواقع التاريخي للدولة الفاطمية في رواية" مجنون الحكم"، كان يحاكي واقعًا موازيًا في العلاقات السياسيّة، أوبالأحرى في علاقة الحاكم بالرعيَّة في وقتنا الرَّاهن، ويكشف بذلك عن سلسلة من التناقضات البالغة التنوع على مستوى القيمة الاجتماعية، وهو المبتغى الذي يتغياه القارئ والمؤلف معًا، فمن "الواضح أن الدّقة في محاكاة الشؤون الإنسانية أكبر تأثيرًا على الخيال، وأكثر إقلاقًا للعواطف"[77].

وقد خلق" بنسالم حميش" عالمًا افتراضيًا يقوم في منطقة وسطية بين الحقيقة و الخيال، ويتجاوب بنوع من الحساسية مع ضغوط العصر ويحاول أن يفسر طبيعة سلوك الحاكم وتفكيره، ويكشف عن طبيعة العلاقة بين الحاكم و الرعيَّة التي تكتسي في الغالب الأعم طابعًا نمطيًا، مع تجذير فرضيات أخذ العبرة. فما تجسده الرواية في علاقتها مع التاريخ هو الاعتبار(أخذ العبرة) وهذا"يمنح الرِّواية التَّاريخية فرصة التخصُّص في تبئير أطروحة أساس، هي نعي التسلُّط وإبراز مساوئ الحكم المستبد، أي أن الرِّواية تستعير من التّاريخ وظيفته الأساسية المتجليَّة في الاعتبار، وتعيد إنتاجها بصوت أعلى مسرّبة عبر قنوات خطابيَّة نوعا من التعليل الخاص الذي يسوق المعنى في اتجاه الحاضر لنفيه واستنكار مآلاته المزرية، وهي ماتزال تكرّر نفس سقوط الماضي"[78]، وقد استغل الروائي"سالم حميش"التاريخ العربي وتاريخ الدولة الفاطمية ليفصح عن موقفه من تزاحم الانكسارات والهزائم المذلة، الناتجة عن الصورة المغلوطة في فهم حقيقة الحكم، والتي يتمثله االحاكم أو السلطان.

فالتاريخ يمثل الكهف الذي يتفيأ الكاتب بظلاله من هزائم الواقع المحرقة وهو يمثل في رواية مجنون الحكم بالنسبة لحميش، واقعا مغايرا مشاكلاً، يحمل اللواء في معركة الحاضر

القائم على استحضار قوى التّصدي .وشخصية الحاكم بأمرالله"تحضر كامتداد طبيعي لطعم البطولةا لواهي المقيّد بايسار الهزيمة الذاتيَّة، وماتضفي عليه من مفهوم مشوه لحقيقة السلطان.

[1] عبد الله إبراهيم: السرديَّة العربيَّة الحديثة الأبنية السَّرديَّة والدلاليَّة، المؤسسة العربية للدّراسات والنَّشر، بيروت، د ط، 2013. ص05.

[2] جنات بلخن: فلسفة التاريخ عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013. ص127.

[3] محمدبرادة: أسئلةالرّواية، أسئلةالنقد، الدارالبيضاء، ط1، 1996. ص07.

[4] آن روب، جاك موشلار: التداوليَّة اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، وآخرون، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 2003. ص197.

[5] شوقي بدر يوسف: الرواية والروائيون، دراسة في الرّواية المصريّة، مؤسسة مورس الدوليَّة للنَّشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، 2006. ص42.

[6] نضال الشمالي: الرّواية وتأويل التاريخ نظرّية الرِّواية والرِّواية العربيَّة، المركز الثقافي العربي، الدَّار البيضاء، المغرب، ط1، 2004 ، ص23.

[7] عبد السلام أقلمون: الرِّواية والتاريخ سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2010، ص56.

[8] عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2006، ص75.

[9] بول ريكور: محاضرات في الايدولوجيا واليوتيوبيا، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتعددة، بيروت، ط1، ص08.

[10] المرجع نفسه، ص14.

[11] المرجع نفسه، ص17.

[12] حاتم السالمي: تفاعل الأجناسالأدبية في رواية دار الباشا لحسن نصر الله، منشورات تحليل الخطاب، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، جانفي، 2009. ص46.

[13] عبد السلام أقلمون: الرِّواية والتّاريخ، سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، لبنان، ط1، 2010. ص187.

[14] آن روب، جاكموشلار: التداوليّة اليوم، علم جديد في التواصل. ص198.

[15] عبد السلام أقلمون، الرّواية والتاريخ. ص224.

[16] المصطفى سلام: التخييل في الفكر النقدي المعاصر، مجلّة البلاغة والنقد الأدبي، ع2، المغرب يوليو 2015، ص65.

[17] عبد السلام أقلمون: الرواية والتاريخ، ص101.

[18] من مقابلة تلفزيونيَّة كان قد أجراها معه الصُّحفي ياسين عدنان، عرضت على قناة الغد يوم 15 فيفري 2019م في حصّة تحمل عنوان بيت ياسين

[19] عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2005. ص17.

[20] بول فين: أزمة المعرفة التاريخيَّة، فوكو وثورة في المنهج، ترجمة: إبراهيم فتحي، دار الفكر للدّراسات والنشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1993. ص06.

[21] عبد الله الغدامي: النَّقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية ص17.

[22] عبد السلام أقلمون: الرّواية والتاريخ، ص103.

[23] محمد عبد القادر: جماليات الرَّمز والتَّخييل، أوراق نقدية في نصوص إبداعية، دار الشروق للنشَّر والتَّوزيع، ط1، ص30.

[24] فاضل تامر: التاريخي والسردي في الرّواية العربيّة، ابن النديم للنّشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2018. ص18.

[25] المرجع السابق. ص18.

[26] جميل موسى النجار، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية، مكتبه مدبولي القاهرة، ط1، 2011. ص161.

[27] المرجع نفسه. ص161.

[28] فخري صالح: في الرواية العربيّة الجديدة، دار الفن النّشر، مصر، ط1، 2010. ص67.

[29] عبد السلام أقلمون: الرواية والتاريخ. ص310.

[30] جميل موسى النجار:دراسات في فلسفة التَّاريخ النقديَّة، مكتبة مدبولي القاهرة، ط1، 2011. ص15.

[31] المرجع نفسه. ص16.

[32] عبد السلام أقلمون: الرّواية والتَّاريخ. ص47.

[33] بنسالم حميش: مجنون الحكم، منشورات رياض الرايس، لندن، 1990. ص12.

[34] نزار حبشي: التناص في شاعر سليمان العيسى، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة البعث، 2004 - 2005. ص147.

[35] فاضل تامر: التَّاريخي والسردي. ص17.

[36] مجنون الحكم. ص91.

[37] المصدر نفسه، ص91.

[38] المصدر نفسه. ص223.

[39] محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، دار الرّفاعي، القاهرة، ط3، 1983. ص90.

[40] مجنون الحكم، ص208.

[41] المصدر نفسه، ص221.

[42] المرجع السابق، ص223 - 224.

[43] المصدر نفسه، ص220.

[44] المصدر نفسه، ص220.

[45] المصدر نفسه، ص220.

[46] محمد عبازة: مقاربات للمسرح التراثي، ص175.

[47] نضال الشمالي: الرواية وتأويل التاريخ، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004، ص42.

[48] المرجع نفسه، ص17.

[49] ينظر آلان روب جرييه: نحو رواية جديدة ترجمة: مصطفى إبراهيم، دار المعارف، مصر، د. ت، ص35.

[50] ينظر المرجع نفسه، ص35.

[51] دفيدهوكس: الإيديولوجية، ترجمة. إبراهيم فتحي، المجلس الأعلى للثقافة، د.ط، 2000، ص07.

[52] مجنون الحكم، ص214.

[53] المصدر نفسه، ص222.

[54] عبد السلام أقلمون: الرّواية والتَّاريخ، ص64.

[55] المرجع نفسه، ص65.

[56] مجنون الحكم، ص224.

[57] المصدر نفسه، ص225.

[58] المصدر نفسه، ص225.

[59] المصدر نفسه، ص225.

[60] المصدر نفسه، ص226.

[61] المصدر نفسه، ص226.

[62] المصدر نفسه، ص226.

[63] المصدر نفسه، ص226.

[64] المصدر نفسه، ص226.

[65] المصدر السابق، ص227.

[66] المصدر نفسه، ص227.

[67] سورة لأعراف [33].

[68] سورة النساء [56].

[69] جان جاك لوسركال: عنف اللغة، ترجمة: محمد بدوي، الدّار العربيَّة للعلوم، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط1، 2005، ص449.

[70] مجنون الحكم، ص229.

[71] عبد السلام أقلمون: الرّواية والتَّاريخ، ص197.

[72] الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط1، 1990، ص07.

[73] فخري صالح، في الرواية العربية الجديدة، ص218.

[74] المرجع السابق، ص222.

[75] نضال الشمالي: الرّواية وتأويل التاريخ، ص92.

[76] المرجع نفسه، ص93.
[77] مندولا: الزمن في الرواية، ص26، 27.
[78] عبد السلام أقلمون: الرّواية والتّاريخ، ص313.

المصادر والمراجع:

1. آلان روب جرييه: نحو رواية جديدة ترجمة: مصطفى إبراهيم، دار المعارف، مصر، د. ت.
2. آن روب، جاك موشلار: التداوليَّة اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، وآخرون، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط1، 2003.
3. بنسالم حميش: مجنون الحكم، منشورات رياض الرايس، لندن، 1990.
4. بول ريكور: محاضرات في الايدولوجيا واليوتيوبيا، ترجمة: فلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتعددة، بيروت، ط1.
5. بول فين: أزمة المعرفة التاريخيَّة، فوكو وثورة في المنهج، ترجمة: إبراهيم فتحي، دار الفكر للدّراسات والنشر والتّوزيع، القاهرة، ط1، 1993.
6. جان جاك لوسركال: عنف اللغة، ترجمة: محمد بدوي، الدّار العربيَّة للعلوم، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط1، 2005.
7. جميل موسى النجار، دراسات في فلسفة التاريخ النقدية، مكتبه مدبولي القاهرة، ط1، 2011.
8. جنات بلخن: فلسفة التاريخ عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013.
9. حاتم السالمي: تفاعل الأجناس الأدبية في رواية دار الباشا لحسن نصر الله، منشورات تحليل الخطاب، مجلة الخطاب، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، جانفي، 2009.
10. دفيدهوكس: الإيديولوجية، ترجمة. إبراهيم فتحي، المجلس الأعلى للثقافة، د. ط، 2000.
11. شوقي بدر يوسف: الرواية والروائيون، دراسة في الرّواية المصريّة، مؤسسة مورس الدوليَّة للنَّشر والتوزيع، الإسكندرية، ط1، 2006.

12. عبد السلام أقلمون: الرِّواية والتاريخ سلطان الحكاية وحكاية السلطان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط1، 2010.

13. عبد الله إبراهيم: السرديَّة العربيَّة الحديثة الأبنية السَّرديَّة والدلاليَّة، المؤسسة العربية للدّراسات والنَّشر، بيروت، د. ط، 2013.

14. عبد الله العروي: العرب والفكر التاريخي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط5، 2006.

15. عبد الله الغذامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 2005.

16. فاضل تامر: التاريخي والسردي في الرّواية العربيّة، ابن النديم للنّشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2018.

17. فخري صالح: في الرواية العربيّة الجديدة، دار الفن النّشر، مصر، ط1، 2010.

18. محمد برادة: أسئلة الرّواية، أسئلة النقد، الدار البيضاء، ط1، 1996.

19. محمد عبازة: مقاربات للمسرح التراثي، دار سحر للنّشر، تونس، أكتوبر، د. ط، 1999.

20. محمد عبد القادر: جماليات الرَّمز والتَّخييل، أوراق نقدية في نصوص إبداعية، دار الشروق للنشَّر والتَّوزيع، ط1.

21. محمد عبد الله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، دار الرّفاعي، القاهرة، ط3، 1983.

22. المصطفى سلام: التخييل في الفكر النقدي المعاصر، مجلَّة البلاغة والنقد الأدبي، ع2، المغرب يوليو 2015.

23. مندولا: الزمن والرواية، ترجمة: بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط1، 1997.

24. نزار حبشي: التناص في شاعر سليمان العيسى، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة البعث، 2004 - 2005.

25. نضال الشمالي: الرّواية وتأويل التاريخ نظريّة الرِّواية والرِّواية العربيَّة، المركز الثقافي العربي، الدَّار البيضاء، المغرب، ط1، 2004.

26. الولي محمد: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط1، 1990.